راديو صوت راية*: حسيبة عبد الرحمن .. لن أغادر منزلي إلا إذا انتصر الموت

أناهيتا إبراهيم- قدمت الروائية السورية حسيبة عبد الرحمن نفسها دائماً كمعارضة سياسية. اليوم هي خارج الضجيج، خارج أي حلف أو تكتل سياسي. منسحبة من لحظة سياسية كانت دائماً معتقلة وهاربة بالنسبة إليها.

هي اليوم حرة، لم يكن اعتقالها إلا إعلاء للصوت في زمن الصمت، أما صمتها اليوم، فهو احتجاج على الزمن الرديء، يعترف فيه الجهلة بخطئهم، ويتابعون حياتهم كأن شيئاً لم يكن، كلامها فيما لو قررت، ينهي ضجيج ثلاث سنوات من "العواء" السياسي.

ماتزال قوية صامدة، بقاياها القديمة حاضرة، كان زمناً صعباً بالنسبة إليها، لكنها لم تفقد إنسانيتها، خرجت من المعتقل لتقاوم من جديد، ولتقول: "إني هنا كيلا يموت الشرف في هذه الأمة".

في لقائها إصرار على صمت سقط سهواً، فتحول كلاماً عفوياً عبثياً ممزوجاً بألم أخذها إلى حيث سورية طفلة تنتظر من يهدهدها.

من شرود الكاتبة أسرق بعضاً من كلامها، وأتكلم بلسان حالها إلى حين يعلن الموت استسلامه كما قالت:

"لا أستطيع أن أتكلم، لا أستطيع أن أكتب، كل شيء مؤجل إلى أجل لم نحدده نحن البشر يوماً، ولن نحدده، اليوم طالما أن الإرادة التي تسيّرنا هي إرادة الرصاص، إرادة بشر يتقاتلون، ويتسابقون على السقوط ابتهاجا بقرب تحقيق الهدف.

لا كلام أمام تابوت يحاول أن ينجو من الموت، وجثة دخلت التابوت هرباً من موت الحياة، فلم تنج، وحياة شعب بأكمله بات ثمنها رصاصة واحدة، تنتظر أجساداً تستّعد هي الأخرى للسقوط.

موقفي نفسي وأخلاقي قبل أن يكون سياسي؛ عُذِبتُ نعم، واعتُقِلت، لكنني لا أستطيع أن أقبض ثمن دماء الناس كما يفعل الآخرون، لا أستطيع أن أرتدي لحية مزيفة للتّو واللحظة، كما ارتدوا هم ثوب الثورة، وهي بالمطلق ليست ثورة (سمّيها انتفاضة)، لكن لا تسمها ثورة، على الرغم من أن كل الأسباب موجودة لقيام ثورة ضد النظام السوري، اقتصادية، اجتماعية، وسياسية، أُضيف إليها في سوريا العامل المذهبي الطائفي، لكن الثورة لا تأتي بالأسوأ، ولا تعود إلى الوراء، الثورة تحدث قطيعة كاملة مع النظام السابق، تحل طبقة مكان طبقة، نظام جديد مكان نظام قديم، هذا هو مفهوم ماركس عن الثورة.

مرة أخرى تعيد الكوميديا السوداء إنتاج نفسها، لم تنجح المعارضة السورية في تقديم برنامج سياسي نعرف من خلاله لماذا يتجادلون ولأي شيء، على أية أرض يتقاتلون، وما هو المشروع، معجزة وحيدة سُجّلت لهم حقا، إنهم غيروا مسار الحلزون الماركسي، فصار يمشي إلى الوراء بدلا من الأمام، وهذه حال البلد في سوريا، لا ثورة طالما أن السلاح يرفع بوجه السلاح، والطائفية تقابل بالطائفية.

النظام ومحدثي نعمته فاسدون والمعارضة المُحدَثة والمحدّثة النعمة ارتمت من فورها بأحضان المال السياسي الخارجي، كلاهما يتسابقان لنيل لقب الأسوأ في ممارسة العنف، وإن كان النظام يتحمل المسؤولية الأكبر، النظام ساق المعارضة إلى هاوية العنف، فاستجابت لرغبته، وكانت النعجة كما أراد لها، تتهم المعارضة النظام بأنه يقتل، لكنها في مقابل ذلك تجلس في الخارج تقبض ثمن الدم، فيما الفقراء هم الضحية، حياتهم تسير على عقارب الموت، موالين كانوا أم معارضين، غالبيتهم من الكتلة الصامتة المحايدة التي لم تعلن موقفها، ولم تحمل سلاحاً، على الرغم من هذا هي معرضة للقتل مع عائلاتها وحاضنتها الاجتماعية، فقراء الزهراء وبابا عمر يرسمون الصورة ويختصرون المشهد، وحدهم الأغنياء منشغلون بإعادة هندسة جيوبهم علّها تتسع لمزيد من وهم المال.

قديما كنا نعرف أن ما ينتظرنا أقبية سجون مظلمة، رصاصة غادرة، أو حبل مشنقة ، لكن متاهة اليوم أكبر من أن نعرف أو نتنبأ متى ستكون النهاية، من تربة فاسدة هي السجن، إلى تربة خصبة للخوف والقلق هي الموت.

كنت دوماً أكثر انتماء لدمشق من أي مكان آخر، أنا اليوم أنتمي لحي كفرسوسة الدمشقي، كفرسوسة التي اقتلع الفاسدون توتها الشامي، وغرسوا مكانه طوابق الحجر، أنا صامدة في قلعتي، لن أغادر طفولتي ومدرستي وذكرياتي، لن أغادر منزلي إلا إذا انتصر الموت".

الروائية السورية "حسيبة عبد الرحمن" من مواليد 1959، أمضت في السجن سبع سنوات متفرقة بتهمة الانتماء إلي حزب سياسي معارض، هو حزب العمل الشيوعي. من أعمالها رواية (الشرنقة) والمجموعة القصصية (سقط سهواً) إضافة إلى رواية (تجليات جدي الشيخ المهاجر).